موسى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴾

(العنكبوت الآيات ١-٣)

* * *

ولقد فتن الله آدم وابتلاه فى ولديه ، وفتن نوحًا فى ولده يوم تمرَّد عليه ، وفتن إبراهيم فى ذبح ولده إسماعيل ، وفى النار يوم أوقدوها عليه ، وفتن يوسف ويعقوب ، وفتن أمَّ موسى ، وابتلاها ، يوم أوحى إليها ،

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

(القصص الآية ٧)

* * *

يا ربِّى ! هو ولدى وفَلْذة كبدى ، فَهبْ لى القُدرة على أن أرْميه فى البحر ..

* * *

يا رِمَاك الله يا فرعون ! وفَرَى كبدك ! تُلْجئنى أن ألقى بولدى فى نهر النيل ، وإلا ذبحته ، وشفَيْتَ بدمه الغليل الذى يأكل صدرَك ، وأطفيتَ النار التى تتلظَّى من الأطفال بين جنبيك ،وليس من ذنب ، إلا أنك رأيتَ فى منامك : أنَّ ولدًا سيولد ، وسيُطيح بعرشك ، وسيقاوم طُغيانَك وسيُفسد عليك ألوهيَّتك !

* * *

ومَا ذنْبُ ولدى ؟ وما ذنْب كلِّ ولد ؟ وما جَلَدِى ؟ وما جَلَد كلِّ أم ؟ حتى تفجع الأمهات فى أولادهن .

لقد سلَّط الله عليك أطْيافَ المنام ، لتُبلْبِل بالَك وتشغلك ، وتفزِّعَك بكُفْرانك ، وعُتُوِّك وسُلطانك ، ألا قَاتَلكَ الله يا فرعون ! وهو قَاتِلكَ بما أسلَفْت لهذا الشعب !

* * *

وراحت المسكينة ، تصنع صندوقا ، وتَفْرِشه ، بفرشٍ طَرِىّ ، وتفتح فى غطائه ثقوبًا ليتنفس الوليد ، وهى حَيْرى فيما تضع معه من زاد ، ولا زاد غير لبنها ، ويأليتها تستطيع أن تُهدى إليه ثديَها .

ولكنَّ إيمانًا ملأ قلبها ، أن أَرْضِعِيهِ وَكَفَى فالله راعيه ومغَذِّيه ، وحارسُه ومُنْجِيه ، بل لابد من أن تظهَرَ قدرتُه فى أن يُربِّيَه فى حِجْر عدوِّه ومُجَافيه .

* * *

وأودعتْه الصندوق ،واستودعته الله ، وبلَّلت حطام الصندوق بالدموع ، وأفرغتْ عليه كلَّ ما فى حشاشتها من حنان ، وفى جُنْح الظلام أسلمتْه للماء فى النيل .

* * *

فأى قلب قلبُك يا أمّ موسى ؟ وأى نور غمره ؟ وأىّ ثقة فى الله ثبَّتَهُ

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(القصص الآيتان ١٠/١١)

وتَتَبَّعِيهِ ، فسارتْ على شاطئ النيل تُحاذِيه ، وتسرع إذا أُسرع به التيار ، وتُهَدِّى سيرها إذا هدَأ ،ويَالَهفَ قلبها ، حين مال به الموج ، فدفعه إلى قَصْرِ الملك فرعون ، إلى شاطئه ، وفى أعشاب حدائقه ، رَكَنَ الصندوقُ واضطَجع .

وكادَتْ أخته تصرخ ، ولو كان الصندوق يسمع ، لحذّرته أنْ يقفَ أمام فرعون ، فكلُّ ما نخشاه ، وكلُّ ما اضطرنا أن نُلقيه فى البحر ، خوفُنا عليه من فرعون ، أفتَقْذِفُه يا مَوْجُ بين يديه ؟ وإلى حيث نَخشَى عليه ؟

يا ربِّى لك حِكْمة ، ومِنْك التَّوجيه ، وعليك الخَلاص !

* * *

وكان فرعون وامرأته ، يُطلاَّن على النيل ، من شُرفات القصر ، فرأَيا الصندوق ، وجاءَ به الحَرسُ إليهما ،وهمَّ فرعون أن يسبق امرأته ، إلى فتحه ، والكشف عما فيه .

ولكنَّ رحمة الله سبَقتْ إلى قلبها فأفعمه بحب مَن فيه .

وانفتح الصندوق ، وانبعث منه عمودٌ من النور ، نفذ إلى قلبها فأضاءَه ، وإلى صدرها

فرطَّبه بمحبته ، وإلى جوانحها فأشعلها بالحنان عليه ، وإلى عاطفةِ الأمومة : وهى عَطْشى تتحرَّق ،فألهمها أن تتبنّاه .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (طه الآية ٣٩)

وصاحت قائلة :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾

(القصص الآية ٩)

وثار فرعون لِمرآه ، وهمَّ أن تلطمه يداه ، وأن تَرْكله رجلاه ، ولكنْ ! ولكنَّ امرأته ، شخَصَتْ بعينيها إليه ، وترجَّته واستعطفته بحبِّها لديه ، أن

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

(القصص الآية ٩)

يا رعاك الله أيتها المرأة ! يا ذاتَ القلب الرحيم ! أنقذْت موسى من الذبح ، وفتحت له باب الحياة ، ووهبت له عمرًا من جديد ، ليحمل الرسالة . ولينقذ هذا الشعب المسكين ، ويُنجيه من الطغاة المفسدين !

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(التحريم الآية ١١)

* * *

وتلقَّفت موسى من بين يديه ،وأنجته من مخالب الموت ، ووضعته بين سَحْرِها ونَحْرِها ،وأخرجت له ثديها ، ولكنَّ موسى ، مُحَرَّمٌ عليه أنْ يرضع إلا من ثدى أمه المؤمنة الصابرة .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾

(القصص الآية ١٢)

فما يقبَل ثديا . وما يقبل شرابا ، وما يَكُفُّ عن بكاءٍ ، مُرضعٌ ، ومرضع ، ومرَاضع ،واحدةٌ تِلْوَ الأخرى ، حتى أزعج القصر ،وسَرَتْ فيه رُوح الإشفاق على الرضيع ، وحتى تمنَّى كلٌّ من فيه ، أن لو يعرفوا أى مُرضعة ! وسأل بعضهم بعضًا ، وهم لا يدرون ماذا يصنعون .

وأختُه قريبةٌ منه ، ولا يدرى أحدٌ مِن أمرها شيئًا ،فلعلها فتاةٌ صغيرة ، دفعها حبُّ الاستطلاع ، إلى أن تدخل البُستان بلا حساب ، لتعرف خبَر طفلٍ وجدوه فى صندوق تحمله أمواج النيل .

وتقدمتْ إلى هؤلاء المُشفقين عليه ، وقالت :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾

(القصص الآية ١٢)

* * *

بارعةٌ هذه البنت فى طريقة عَرْض فِكرتها ،ولو كانت بنتًا أخرى ، لقالت ، أستطيع أن آتيكم بمُرضع أعرفها ، ولكنها أصرَّت على أن يسلِّموه إليها ، فتسلِّمه إلى أهل بيتٍ يُرضعونه ويتعهدونه ويُربُّونه ، وأن يجعلوا بيتهم دار كَفَالة .

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(القصص الآية ١٣)

إنها أخته ، وأن المرضع أمُّه .

* * *

واطمأن قلبها ، وصدق وعدُ الله ، فأرضعَتْه ،وأكْمَلَتْ رضاعه ، وامرأة فرعون ، تسأل عن الوليد ، وتُوصى عليه ، وتُغْدِق أجْرَ رضاعه ، حتى بلغ الفِطام ، فعاد إلى القصر ،ليُرَبَّى فى حِجرهم ، وليعيش فى المقاصير .

فأصبح ابن القصر ، ووحيد الملكة ، ويَلْسم جراحها ، وريَّ عطشها ، وولدَها يوم لا ولد لها ؟

وفرعون يرى ، ويَغار ،ولا يملك إلا أن يسكت مرة ، ويجامل الملكة مرة ، فيتصنَّع المحبة ، ويتظاهر بالإعزاز ، ويُبدى كلَّ رعاية وعطفٍ وحنان .

ولكنّ فرعون ، كان بين الحين والحين ،تتحركُ نفسُه ، وتتحفز غَيْرته ، من هذا الوليد ، الذى شغل قلب امرأته عنه ، وأبْردَ عواطفها نحوه فيُهمُّ به ليبطش أو ليقتل ، فكانت تدركه ، وتهدّئُ من ثورته ، وتطفئُ من نار غيرته .

ولكن ما عذْر الصبى ، إذا جلس يومًا فى حِجر فرعون ، يلعب على صدره ، ويَثِبُ على كتفيه ، ويشدُ خُصلةً من شعرات ذقنه !

أما إلى هذا الحد ،والاجتراء على لحية الملك ، فليس إلا الذبح ، وثار ، وأثار الضجيج والغبار ، ونادى السَّياف ،لولا أن تداركتْه المرأة بحيلتها ،واستشفعتْ بأن الصبى ، لا يدرى أنَّ ذلك يُغضب ، وأنَّ الطفل لا يُفَرِّق بين التَّمْرة والجمرة ، وقدَّمَتْ هذه وتلك ، وشاءَ الله ، أن يتناول الجمرة ، ويَدَع التَّمرة ،ويدفعها إلى لسانه ، فتصيبه بسوءٍ .

* * *

وكبر موسى واستوى ،وصنعه الله على مُراده وعينه ، وربَّاه فى حِجر عدوه ، وآتاه الله حِكمة ، ومنحه علما ، وكذلك نجزى المحسنين .

* * *

وموسى ، لا ينسى أنه من بنى إسرائيل ، يعلم ذلك ، ويحسُّه فى دمه وعواطفه ، ويرى أن بنى إسرائيل قومٌ مستضعَفون يُذلّهم فرعون ، ويضغط عليهم فى حياتهم ، ويُدرك أنه إنما آتاه الله العلم والحكمة وكرَّمه هذه التكرمة ، ليدرك قومه ، وينقذهم من ظلم الظالمين .

* * *

وهو من أجل هذا ، يفور ويغضب ، وتثور عصبيَّته ، حين يخرج إلى المدينة ، فيرى رجلاً من هؤلاء الفراعنة المفسدين ، يقاتل رجلاً عِبْريًا من بنى إسرائيل ،

﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ (القصص الآية ١٥)

فوكَزَ موسى ذلك المُعْتدى الفرعونى ولكَمَه لكْمة قوية ، يُناصر بها قريبَه المظلوم على ظالمه ، فكانت ضربةً قاضية ، قتلته ، وأزهقتْ روُحه .

* * *

ولكن موسى ، لما هدأ لنفسه ، وأفاق من تعصبه وعصبيَّته ، وبان له سوءُ فعله ، ندم ، واستغفر ربه ، من جريمة تدور بخَلَدِه وإنما كانت حماقة ، وما الحمق إلا من عمل الشيطان ،إن الشطان لَغَوِىٌّ مُضِلٌّ مُبين .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

(القصص الآيتان ١٦/١٧)

* * *

وحمل أهلُ القتيل قتيلهم وهُمْ جبابرة فراعنة ، وراحوا يبحثون عن القاتل ، فلم يعرفوه ،وتربصوا به ، وترقبوه لعلهم إليه يهتدون ، فيقتلونه ، ويُوقعون به العذاب الأليم

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾

(القصص الآية ١٨)

وجاءَه قريبُه الإسرائيلي ، يستعينه ، كما استعان به بالأمس ، ليقتل رجلا آخر من القوم ، فانتفض موسى ، وفزع فيه ، وحذَّره أن يُغريه عطفُه عليه ، وخوَّفه نتيجة جَلْب المشاكل إليه ، وهم به ليرْدَعه ، وليفهِّمه أن التعصب والعصبيَّة لن تنفعه ، وقال له موسى :

﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾

(القصص الآية ١٨)

ولكن هذا الأحمق السفيه ، خاف من موسى . وظن أنه سيقتله ، فقال :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

(القصص الآية ١٩)

﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾

(القصص الآية ١٨)

ويُؤلِّب الناس عليه .

* * *

وعرف القوم فى المدينة ، أن موسى قاتل ، وأنه مطلوبٌ بقتيله ،

وائتمر به القوم ليقتلوه ، وجاءَه رجل طيب من أقصى المدينة يسعى ،

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(القصص الآيتان ٢٠/٢١)

أهكذا تكون القرابة ؟ وأهكذا تكون عاقبة الإنسان فى اندفاعه فى حب أهله ؟ يا سبحان الله ! ..

أمنْ قصر الملك ، ومن حِجْر فرعون ، وفى استواءِ القوة ، وكمال العلم ورجحان الحكمة ، ونُصْرة المظلوم ، والتعصّب للأهل ، والتفانى فى حماية القوم ، أمن كل هذا تخرج يا موسى شريدًا طريدًا ، مطلوبًا بالثأر خائفًا تتلفّت ، مذعورًا تترقب ، فى غَلَس الليل ، وسواد الوحدة ، لا أهل ، ولا زاد ، ولا راحلة . ولا أمل إلا فى النجاة بالنفس ، والإفلاتَ من الموت ؟ ! ..

* * *

أيجزع ؟ أم يلعن هذا الأحمق المغفل ؟ الذى جر عليه الويل ، وجلب له الحرمان والتشريد ، والفرار من وجه الثائرين الغاضبين ، فزعزع حياته ، وخلع عنه سعادته ، وقديمًا قيل : اتق شرَّ من أحسنتَ إليه ! ..

* * *

وكان لابد من الفرار ، ولكن إلى أين يفر ؟ وهو فى مصر ؟ إلى المغرب ؟ وكله صحراءُ جرداءُ . أإلى الجنوب وهو عالم مجهول ..

لابد من الفرار بالدين ، إلى منبع الأديان ، إلى منبت الأنبياءِ ، إلى الشرق ..

والشرق بعيد ، من الفيّوم إلى الشام ، يمشى بالليل ، ويستكِنُّ بالنهار ، حتى يعبر البحر الأحمر ، أو يدور مع الشاطئ حتى يدخل شبه جزيرة طور سيناءَ ، حتى يدخل بلاد العرب ..

وهنا يلقى أول ناس يلقونه ، قبائل مدْيَن ؛ الذين أرسل الله إليهم نبيهم الشيخ العجوز الفانى شُعَيْبًا ، فطرح نفسه تحت شجرة ، يستروح فى ظلها ، ولبريح جسمَه ، ويطمئِن روحه إلى أنه نجا من القوم الظالمين ..

ورأى على بعد ، ناسا مجتمعين ، ورعاة أغنام يتزاحمون ، على عين ماءٍ ، يسقون أغنامهم ، ورأى أن الأقوياءَ يزاحمون الضعفاءَ . وأن الضعفاءَ محرومون لا يسقون ..

وأبصر من وراءِ هؤلاء المتزاحمين ، بنتين جميلتين ، تحجزان غنمهما عن زحمة الناس حتى يسقى الأقوياءُ .

والمرأة فيها حياءٌ وضعف ، وبهاتين الغريزتين تستثير نخوة الرجال ، فيندفعون إلى خدمتها ومعونتها .

وكذلك كان موسى ، فتقدم إلى الفتاتين يسألهما

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾

(القصص الآية ٢٣)

فتقدم موسى ، وزحم القوم كما يتزاحمون ، وسقى لهما الغنم ،

﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾

(القصص الآية ٢٤)

والله أعلم به ، وبجوعه ، وتعبه ، وما يجول بخاطره ، من مطاردة الكفرة فى وطنه ، ومن مشقته فى هربه وسفره ، ومن الوحشة فى غربته ..

فاتجه إلى ربه ، يدعوه ، أن يفرج كربه ، وأن يوسع ضيقه ، وأن يؤنسه من خوف ، وأن يهيئ له الزاد والمنزل ..

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(الطلاق الآيتان ٢/٣)

* * *

وفيما هو غارق فى مناجاة الله ، جاءته إحدى البنتين ، تمشى إليه فى حياءٍ وخفر ، وفى جمال نضر ، قالت : يا هذا

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

(القصص الآية ٢٥)

وما كان موسى يترقب أجرًا على معروف ، ولكنه ملهوف ، يرى أن هذه الدعوة التى دعاه إليها الشيخ ، نعمة ساقها الله إليه ، وما يصح وهو غريب أن يرفض هذه الدعوة ، أو يرد هذه النعمة ..

* * *

وسار هو والفتاة ، ثم رأى أن تمشى أمامه لتدله على الطريق ، ثم رأى أن يسبقها وأن

تمشى من ورائه ، وتنبهه إلى منعطفات الطريق ، حتى لا يتبعها بعينه ، والنظرة الأولى لك ، والثانية محسوبة عليك ..

* * *

ووجد شعيب أبوها ، ذلك الشاب ، المهذب ، القوى ، الغريب ، وهو شيخ كبير ، محتاج إلى شاب ، مهذب ، قوى ، غريب ، وسمع منه ، وعرف عنه ، وتفرّس فيه ، وعلق الأمل عليه ، فطمأنه ، وطيب خاطره ، واستضافه عنده ..

* * *

وما أجمل المصارحة فى تربية البنت ، حتى تعيش مع الناس ، صريحة ، لا تنافق ، ولا تتوارى ، تبدى عاطفتها ورغبتها فى شجاعة وعفاف ، فتريح نفسها من الكبْت ، وتريح أهلها من المراقبة ، فتظللها الثقة ، وراحة البال ، ورضى النفس ! ..

وما أجرأها حين تقول

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

(القصص الآية ٢٦)

فقد خبرته فى قوته ، يوم زاحم الأشداءَ المتزاحمين ، فأفسح الطريق ، وسقى الغنم ، وما تعرض له متعرض ، أو زاحمه مزاحم . وخبرته فى أمانته ، يوم سارت إلى جانبه ، فخشى قول الناس فيها أنها تمشى مع رجل غريب ، وخشى أن تقع عينه عليها ، حين سارت أمامه لتدله على الطريق ، فأخرها وراءَه ، وتلك غاية حدود الأمانة على فتاة جميلة ، أرسلها أبوها إليه يستدعيه ..

والرجل ، شيخ مجرب ، ناضج الأبوّة ، فاهم للدنيا ، دارت برأسه فكرة ، وكثيرا ما تدور برءُوس الآباءِ أفكار . ولكن الآباءَ لا يقدرون على ما قدر عليه شعيب ، ولا يدرسون مسائلهم ، كما درسها شعيب ..

فهو قد تحدث إلى هذا الشاب الغريب ، وانتهى إلى رأى فيه ..

والرجل العاقل يخطب على ابنته ، من قبل أن يخطب لابنه ..

والشيخ قرر أن يكسب هذا الشاب ، وأن يزوجه ، وقرر أن يمنحه ، لا ، بل أن يمكنه من حقه فى اختيار زوجته ، فلم يلزمه أن يتزوج إلا برغبته وبعد مشورته ، والشيخ يعلم أنه لابد أن يقدم الزوج مهرًا لزوجته ، وأن مهر الزوجة لابد أن يكون على قدرها ، مناسبًا لمقامها ،

وقدَّر أنْ يكون المهر مالا إذا كان فى يد الزوج مال ، أو يكون عملا يساوى ذلك المال . وقدر أن يكون عمل زوج البنت عند حميه ، أولى من أن يعمل عند الغرباءِ ، وقدَّر أن مهر بنته ، يساوى أجر هذا الزوج على عمله مدة ثمانى سنوات ، وقدَّر أن الزوج قد يُهدى إلى زوجته هدايا إذا شاءَ ، وقدَّر حدَّ هذه الهدايا ، يساوى أجرَه على عمله سنتين ..

قال شعيب لموسى

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(القصص الآية ٢٧)

وقال موسى لحميه شعيب ، رضيتُ ذلك الاتفاق بينى وبينك

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

(القصص الآية ٢٨)

* * *

أليس هذا نواة التشريع ؟ لقانون العمل الفردى ؟ وبين العامل وصاحب العمل ؟ ..

واليس فى هذا رسمُ خطةِ بناءِ التعاقد بينهما على الشفقة والمودة ، وألا يكون فيه إعناتٌ ومشقة ؟ وأن يكون التعاقد قائما على شهادة وشهود وهما بنتاه ، والله على ما نقول وكيل ؟ ..

ولكن ! أكان هذا الحدُّ والعَدُّ ، معدل مهر الزوجات فى ذلك العهد ؟ أجر ثلاثة آلاف يوم ، غير الهدايا ، لعامل أمين مهذب قوى مثل موسى ؟ يحمل الأعباءَ ، ويرعى الشئون ، ويُخلص فى الخدمة ، ويدَرأ العادية ؟ ..

فى أيامنا هذه لا يكفى العاملَ الأمين المهذب القوى ، إلا عشرة جنيهات يعيش بخمس جنيهات ، وخمس فى ثلاثة آلاف يوم تساوى : ألف وخمسمائة جنيهًا ، غير ما عرض عليه من الإهداء إن شاءَ قدَّم ، وإن شاءَ لم يقدم

﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ ﴾ (القصص الآية ٢٧)

* * *

أكان هذا من شعيب مغالاة فى مهر ابنته ؟ « غالى بنفسىَ عِرْفانى بقيمتها » ؟ ..

أم كان ذلك منه ، ليُفسح لموسى الأمل ، ويمدَّ له فى خيط الأجل ، لعله يُروض نفسه على الإقامة فى وطن جديد ، فيستبدل وطنًا بوطن ؟ ..

أكان ذلك عن إعزاز لابنته ، فما أحبَّ أن يزوجها اليوم ، لترحل عنه فى غَدِه ؟ ..

أم كان ذلك ، ليُشرِّع للناس أن البنت ليست عارًا ومَعرَّة على أهلها ، إذا حسنوا تربيتَها ، وأن أباها يكسب رجلاً بها ، ويَقوى بمصاهرتها ؟ ..

* * *

ولعل شعيبًا كان أبعد نظرًا ، وأسمى تدبيرًا من كل ما نفكر ..

ورأى أن مصلحة موسى ، فى البُعد عن أولئك القوم الكافرين ، الذين يطلبونه فى وطنه بدم القتيل ، وأن من الخير لموسى ، أن تطول إقامته فى مِحْراب الصلاة ، ومعبد الفلاة ، ورهبانية الصحراءِ . فلا يكون ما يشغله فى الحياة ، عن الله وعن الصلاة ، حتى تبلغ سِنُّه الأربعين ، سنَّ القوة على احتمال النُّبوَّة والرسالة ؟ ..

* * *

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾

(القصص الآية ٢٩)

الذى تعاقد عليه ، كان قد اشتد به حنينه إلى وطنه ، فلم يشتر به وطنَ زوجته ، ولم يُلْهمه عنه عزُّ حميه ومالُه ، ولم يفعل ما يفعلُ أبناؤنا فى هذا الزمان ، حين يسافرون إلى الغرب فى طلب العلم ، فيقعُون على الأجنبيات ، ويبيعون أنفسهم وأهلهم وأوطانهم ويرحلون على هوى الزوجات ، ويرتمون هناك تابعين مسخَّرين ، وإلا عادوا إلينا ، أنقاضًا محطمة ، بعد أن يَذْوِىَ شبابُهم ، وتهلِكَ نفوسُهم ، تموُّع شخصياتُهم ، وترخُصَ فى سوق الوطن أسعارُهم ..

وموسى كان أكرمَ على نفسه ، وكان وطنُه أكرمَ عليه من نفسه ، فجمع شمله ، واصطحب أهله ، ورجع قافلاً إلى مصر ، مُزوَّدًا بدعوات شعيب ..

فوصل إلى حدود بلاد العرب من الغرب ، ووقف على أبواب جبل الطور ، والجبل تِيهٌ ؛ يتيه فيه من لم يعرف الطريق ، وضلَّ موسى طريقه ، فأقام زمنًا حتى يهتدى ، فلَسَعَهُ البرد ، ولسع أهله ، فالتمس الهداية على ضوء النار ، التى يوقدها الناس ، ليهتدى بها الضالّ ، وليكرمَ بها الضيف وَيدْفأ بها البَرْدَان ..

وقد

﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

(القصص الآية ٢٩)

وسار فى سفح الجبل ، حتى نزل الوادى المُقدَّس ، الذى ناداه الله فيه ، واختاره لرسالته ، ومنَّ عليه فكرّمه ، وجعله من المرسلين ..

* * *

وماذا يكون من مظهر التأدُّب فى الاستماع إلى الله سبحانه ، إلا أن يخلع الإنسان نَعلَيْه ، وماذا يُفهَمْ من خلع النعْل ، وحَفَى القدمين ، إلا الخضوع ، والالتفات بكافة الحواس ، إلى تَلَقّى هذه المهمة الخطيرة ، والانصراف عن مشاغل الحياة من أهل ومن مال ؟ ..

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (طه الآيتان ١٢/١١)

* * *

ونداءُ اللهِ عبدَه ، وكلامُه إلى الأنبياءِ ، كان تَلَقِّيًا رُوحِيا ، فيَتَمثَّل التلَقِّى الرُّوحِىُّ للجسد ، فيجرى به اللسان من إملاءِ الروح ..

وفى أيامنا ، نسمع الأصوات المجسَّمة ، لا ندرى من أى ناحية أتتْ وإنما هى أصواتٌ تملأ الرُّوحَ والجسد .

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾

(طه الآيتان ١٤/١٣)

إذا ذكرتَنِى ، أو لتذكُرنى بها .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه الآيتان ١٨/١٧)

تنفعنى فى تقريب البعيد ، وصدِّ العُدوان ، وتسهيل المصاعب ، وتفريج الكروب ..

وقال الله لموسى

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

(طه الآيتان ١٩/٢٠)

فخاف موسى واضطرب ، من سرّ فى عصاه ، كان خافيا عليه ، ولِهَوْلِ ما رآه حين تَلْتَقِمُ الحجر ، وتبتلع الثمر ، وتأكل الشجر ، فجرى موسى ليهرب ..

وقال الله لموسى

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾

عصًا ، مرة أخرى .

(طه الآية ٢١)

وقال الله لموسى : وَضَع يدك فى جيبك

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾

(طه الآية ٢٢)

وتحتَ إبطِك ، ثم أخرِجْها ، لترى أنها بيضاءَ بياضَ اللبن ، لا بياض البُهاق والبَرَص .. فالعصا ، يا موسى ، آيةٌ ومُعجزة ويدُك آيةٌ أخرى ومُعجزة ..

واذهبْ يا موسى ، بهاتين الآيتين ، وهذين الدليلين القاطعَين ، إلى فرعون بمصر ،

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

(القصص الآية ٣٢)

* * *

مُهِمَّةٌ ، تحتاج إلى عَزْم وَجَلَد ، تُلْقَى على عاتق رجل غائب عن وطنه زمانًا طويلاً وهو مطلوبٌ بثأرٍ قديم ، ومهمتهُ أن يحُوِّل فرعون الطاغية الجبار من دين إلى دين ، وأن يزحزحه من قمة مجده ، إلى سفح عامَّة شعبه ، وأن يرفع من نفسيَّة هذا الشعب الكسير المظلوم ، وأن يُسَوِّىَ بين هؤلاءِ وهؤلاءِ ..

* * *

وطلبَ موسى من ربه مَطْلَبَيْن : طلبَ الأمانَ من الثأر والحمايَة من الثائرين ، وهو يعلم أن الله حاميه ومُنْجِيه ، ولكنه أحب أن يُعَلِّمَ الناس ، أن يستعينوا على قضاءِ حوائجهم ، وفكِّ كروبِهم بالدعاءِ ..

وفى فاتحة القرآن ، عَلّمنا الله ، أن ندعو ، ونعبد ، ونستعين بالله ..

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (طه الآيات ٢٥-٢٨)

وطلب المعونة على المهمة الشاقة ، وهو يعلم أن الله مُعينهُ ومُقَوِّيه ، ولكنه تعلَيمٌ للناس ، ألا تَغُرّهم قُواهم ، فيَتصدَّوْا للعظائم ، من قبل أن يُعِدُّوا العُدَّة ، ويشحذوا القوة ، ويلتمسوا المدد ..

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾

(القصص الآية ٣٣)

﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾

(القصص الآية ٣٤)

* * *

ولأمرٍ ما ، طلب موسى من ربه ، أن يجعل هارون أخاه وزيرًا له فى دعوته ؟ أكان ذلك للعَطَب الذى عَطَبَ لسانَه ، يوم همَّ فرعون بقتله ، فاستشفعت فيه امرأة فرعون ، وقالت : إنه صبىٌّ صغيرٌ لا يعرف التمر من الجمر ، وأبى فرعون بحماقته إلاَّ أن يَعْرِضَ عليه تَمْرَةً وجَمْرة ، وشاءَ الله ، أن يَمُد يده على الجمْرة ، ويقذفها فى فمه فتعطَّبَ لسانُه وتخلَّفَت فيه عاهةُ اللُّثغة ؟ ..

أم كان ذلك لأن موسى ، وهو فى جبل الطور ، يوم ناجاه ربه ، تجسمَّت له مسئولية الرسالة إلى ناسٍ فراعنة ، يتزعمهم فرعون الطاغية ، ولابد له من سَنَد ومُعين ، يشد أزْرَه ، ويُقَوِّى ظهره ، ويكون فى الشدائد ردْءَه ، وليس مَنْ يَصْلُح لهذا إلا أخوه ؟ ..

أم كان ذلك ، لأن موسى يعلم وهو فى جبل الطور ، أن هارون يقيم بمصر بين القوم فهو أدرى بهم ، وأبصَرُ بأحوالهم ، وأخبَرُ بالطريقة التى توصِّل إلى قلوبهم ، وباللسان الذى يستميل عواطفهم وإحساساتهم ، فهو لهذا أقوى وأقدر على إقناعهم ، وهو لهذا يكون أفصح لسانًا من موسى ؟ ..

أم كان ذلك ، لأن موسى يرى أنه حريصٌ أول الأمر على إيمان أخيه هارون ، وعلى

تصديقه برسالته ؟ وكذلك كان يفعل الأنبياء من قبلُ ومن بعدُ ، حيث كانوا يبدءون بدعوة أهليهم ، وبأقرب الناس إليهم ، وحتى لا يكون بُعْدُ هارون عنه ، أو تكذيبُه إياه ، مُثَبِّطًا لهمَّته ، مُخَضِّضًا لشوكته ، فيستهلك قوته بين أهله وقومه .

ويا موسى لا تخفْ ، فهذا هارون معك ، يؤمن بك ، وقد أشركناه فى أمرك ، وقد ألهمناه أن يخرج من مصر إليك فى جبل الطور ، ليكون فى مَعِيَّتِكَ ، وليكون وزيرك .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

(القصص الآية ٣٥)

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

(طه الآيات ٤٢/٤٤)

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (النازعات الآيات ١٧ – ١٩)

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء الآيتان ١٥/١٦)

* * *

ميدان لسان ، ومعركة أديان ، وأسلحةُ الدليل والبرهان ، وسَنَدٌ من الرحيم الرحمن ، وسلطانٌ لموسى أىّ سلطان ..

ولكنْ كما قال القرآن

﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل الآية ١٢٥)

قَوْلٌ ليِّن ، ودِين بيِّن ، وأُسلوبٌ هيِّن ، لعلَّه يتذكر أو يخشى ، والله يهدى من يشاءُ .

* * *

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ
أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(الأعراف الآيتان ١٠٤/١٠٥)

وأعتِقْهم من عُبوديتك ، وارحَمهم من بطشك ، ولا تَحْجُرْ عليهم ، فتحرمهم من اتّباع الدين الذى أدْعُو إليه .

* * *

قال فرعون : وما ربُّ العالمين ؟ قال موسى

قال فرعون : لِمنْ حوله : ألا تستمعون ؟

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ
ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٥٦)

قال موسى : ربُّنا

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(الشعراء الآية ٢٦)

قال فرعون لمن حوله

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

(الشعراء الآية ٢٧)

قال موسى : ربّنا

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الشعراء الآية ٢٨)

قال فرعون لموسى

﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾

(الشعراء الآية ٢٩)

قال موسى ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾

(الشعراء الآية ٣٠)

قال فرعون ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(الشعراء الآية ٣١)

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

(الشعراء الآيتان ٣٢/٣٣)

قال فرعون ﴿ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء الآيتان ٣٤ ، ٣٥)

وما جاءَ ، إلا لِيلْفِتَنَا عمَّا وجدنا عليه آباءَنا ، وإلا لتكون له ولأخيه ، الكبرياءُ فى الأرض ، وما نحن لهما بمؤمنين .

فماذا ترون ؟ وماذا تأمرون فى هذين الساحرين .

قالوا ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾

(الشعراء الآيتان ٣٦/٣٧)

بالسحرة العالمين

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(الشعراء الآية ٣٨)

وتجمَع الخلق ، ليشهدوا أى السِّحرَيْن أقوى وأصدق ، وليعلموا أىَّ السحرة أغلب .

وطمع سَحَرَةُ فرعون فيه ، وفَرَضُوا أجْرهم عليه ، واشترطوا رَفْع شأنهم لديه ، وموسى ثابتٌ ، لا يتزعزع ، مستيقنٌ فى نصر ربه ، ينظر إلى كفرهم وباطلهم .

ويقول لهم

﴿ ثُمَّ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾

(الشعراء الآية ٤٣)

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾

(الشعراء الآية ٤٤)

* * *

وقال : بِعِزَّةِ الله . الذى لا إله سواه ، نَعْبده ونخشاه ، والوَيلُ لِمن كابَرَ وعصاه ، وعَصَى نِدَاءَ الله .

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ (الشعراء الآية ٤٥)

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه الآية ٢٠)

وتلقّفهم ما يدَّعُونَ . ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الشعراء الآية ٤٥)

* * *

وذَهِل فرعون ، وبَرَدَتْ حماسته ، وانطفأت شعلته ، وأُسْقِط فى يده ، لما رأى السِّحرة ، خروا ساجدين مُسْلِمين لموسى ، ويقولون :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء الآية ٤٧)

* * *

معركة أدْيان ، بأسلحة الدليل والبرهان ، وبمدَدٍ من الرحيم الرحمن .

وطاش سهم فرعون ، وخسر المعركة ، وتزعزعت ثقة الناس فيه ، وكفروا بألوهيته ، وفكروا فى موسى ودينه وقوته ، وانحاز المفكرون إليه ، وخشىَ المستضعَفون إن اتَّبعوه ، أن يبطش بهم فرعون وجنوده ، إنهم كانوا قومًا فاسقين .

* * *

ووقف فرعون يزأر ولا زئير ، ويتوعد السَّحرة ولا وعيد ، ويحلف ولا أيمان له ، أنه سيقتلهم ويَصْلُبُهم ، ويقطع أيديَهم وأرجلهم من خِلافٍ ، وسيجعلهم عِبْرةً للناس .

* * *

وما كان قولَهم إلا أن قالوا : لا ضَيْرَ علينا من غضبك ، ولا يُخيفنا تهديدُك

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء الآيتان ٥٠/٥١)

* * *

واشتد الغيظ بفرعون ، فالتفت إلى موسى ، يُعَيِّره بفضله عليه ، وبتربيته فى حِجْره ، وبين يديه ، وعلى عَينَيه ، ويقول له

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ (الشعراء الآيتان ١٨/١٩)

ويُهدده بالثأر القديم ،

وهربْتَ وفررْت

﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء الآية ١٩)

وقال موسى : يا فرعون . ربى سبحانه الذى ربَّانى ، وعلى عينه صنعنى وحمانى ، وفرض حياتى عليك ، فى بيتك على رَغْمِك ، وملأ بمحبتى قلب امرأتك ، فكانت حِمَايَ من بطشِك ، يوم كنتُ شَجَى فى خَلْقِك ، وقَذى فى عينك ، وما مِنْ ساعة ، إلا كُنْتُ أنا فيها مُهَدِّدا بغَدْرِك ، لولا عينُ الله كانت ترعانى وتحرسُنى منك ، وتدفع عنى أذَاك .

فجعلنى الله عُقُوبتَك ، وسَوْطَ عذابك ، جزاءَ ما قتلتَ من أبناءِ شعبك ، وذَبحْتَ أطفالاً أبرياءَ ، لا حول لهم ولا لأمهاتهم قِبلَك ، ولا ذنبَ جَنَوه ، ولا جُرْمًا أجرموه .

ويا فرعون . فَعْلتُ فَعْلَتى هذه ، وقتَلْتُ المُعْتدِى ، وما نَوْيتُ ، وإنما كنتُ أنصرُ مظلومًا على ظالم ، وكان أحمق طائشًا من جُندك ، الذين طَغَوْا بطغيانك ، وبَطِرُوا على الناس بسلطانك ، فأغريتَهم بالضعفاءِ ، حتى استذلُّوا الأحرارَ الأبرياءَ .

ويا فرعون . كانت فَعْلتى نَزْوَةَ شباب ، وغَيْرةً حَمْقى على أحْباب ، يوم كنتُ غضَّ الإهاب ، لم أشْرُفْ بعدُ برسالةِ العليم الوهَّاب !

* * *

وأىُّ صَبْرٍ للطاغية ، وأىُّ أمَانٍ له على مُلْكِه مِنْ هذا الدَّاعية ؟

وأىُّ بقاءٍ لدِينِ الحماقة والجهل والقوة ، أمام دين السَّلام والعلم والهداية . وبين الدِّينَيْن تَنَازُعٌ فى البقاءِ ، ولا بَقَاءَ إلا للأصلح ، وفرعون بعينيه يرى النور يمسح ظُلْمَتَه ، ويكشف مِلَّته ، ويزعزع من أركانه ويهدُّ من سلطانه .

وإذن فلابد أن يرفع السوط ، ويستل السيف ، ويشق بطن الأرض ، ليخفى فيها موسى ودينه ، تأمنًا لكبريائه ، وضمانا لملكه .

* * *

ودارت المعركة من جديد ، بين معسكر فرعون وأجناده ، وبين موسى ودينه ، فعاد فرعون من جديد ، يصب العذاب على بنى إسرائيل ويذيقهم النكال ، ويضيق عليهم الخناق ، ويدبر ويفكر هو وأعوانه ، ليقتل أبناءهم ، ويستحيى نساءَهم .

ويروحُ بنو إسرائيل إلى موسى ، يفزَعون إليه ، ويُلقُون المسئولية عليه . ويقولون : يا موسى، قد

﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

(الأعراف الآية ١٢٩)

فأين ما وعدتنا من حمايتنا ، وكف الأذى عنا ؟

لقد كاد يُهلِكنُا ، ويقطعُ دابرَنا .

* * *

وموسى بين شِقى الرَّحَى ، بين فرعون وعِنَادِه ، وبين أهله الذين ضَجُّوا من أجنادِه ، فلا يملك موسى إلا أن يُصَبِّرَهم ويُواسيَهم ، ويدعوهم إلى التجلُّد ، ثم يتجه إلى الله ، فيسأله العونَ على فرعون ، ويسأله النجاةَ لبنى إسرائيل .

* * *

وفرعون سادِرٌ فى غَيِّه ، راكبٌ رأسه ، زاحِفٌ وراءَ شيطانه ، جاحٌ به غرورُه ، معتزٌّ بجاهه ، يقول لِمنْ حوله :

﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف الآيات ٥١-٥٣)

يا قوم ، ما أطولَ ما صَبرنا على عدوٍّنا ؟ أفلا تُريحُ أنفسنا من هذا الذى تطاول علينا ؟ وسوف لا يكُفُّ حتى يُغيِّرَ ديننَا ، ويُسَفِّه أحلامنا .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾

(غافر الآيتان ٢٥/٢٦)

وللحَقِّ أشِعة ، تنفُذُ إلى القلوب السليمة ، والعقول الحكيمة ، فتضيئُها وتُفعِمُهَا بالنور ، وكذلك تسرَّب نورُ الإيمان إلى بعضٍ من قوم فرعون . فآمنوا ، ولكنهم لخوفهم من سيف الظلم المصلت على رقابهم ، أخفوا إيمانَهم وكتَمُوه :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾

(غافر الآية ٢٨)

وجاءَ بالدليل الواضح ، والبينة الساطعة ؟ جاءَكم بمُعجزات تُعجز البشر . ولا تكون إلا عن قدرة فوق طاقة العالمين ؟

﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ (غافر الآية ٢٨)

يعود عليكم بعض الخير من دعواته ، وإن كان مسرفًا فى قوله ، فإن الله لا يهديه ،

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر الآية ٢٨)

وقال هذا المؤمن ، الذى يكتم إيمانه لفرعون وملئِه : يا قوم ماذا تخافون ؟ فهذا مُلْكٌ واسعٌ عريض ، وهذه عظمتكم ظاهرة فى بقاع الأرض ، فلئن ضَمِنتم هذه الدنيا ، أفتضمنُون هذا كله فى الآخرة ؟ أو ينفعنا كل هذا ، أو يدفع عنا عذاب الله إن حلَّ بنا ؟

ولكن فرعون ، أصمَّ أذنيه ، وأغمض عن الحق عينيه ، وقال لا رَأْىَ إلا ما رأيتُ ، وإن هذا لَهُوَ الرأىُ الرشيد الحكيم .

﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر الآية ٢٩)

وعاد المؤمن الذى يستر إيمانه ، يُنذرهم ويُحذِّرهم ، ويقول لهم :

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (غافر الآية ٣٢)

يوم الآخرة ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ (غافر الآية ٣٢)

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾
(غافر الآيتان ٤١/٤٢)

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾
(غافر الآيتان ٤٣/٤٤)

* * *

وفرعون ، هو فرعون ، لا ينسى عناده ، ولا يتنازل عن كبريائه ، يقول ويقول ، ويهدِّد ويتوعَّد ويُمْعِن فى إيذاءِ بنى إسرائيل ، حتى نَفِدَ صبرهم وجَأَرُوا بالدعاءِ إلى ربهم ، واستغاثوا بموسى نبيهم ، من سخط فرعون النازل بهم .

فاستجاب الله دعاءَ موسى ودعاءَهم ، وأخذ فرعون وقومَه ببعض ذنوبهم . فنزع البركة من مالهم ، وسلَّط الأمراض عليهم ، فنقص عددُهم ، بَخِلَ النيل عليهم ، فانحسر ماؤه عنهم ، وأجْدَبَتْ أرضهم ، ونَشِف ، زرعهم ، وعَطِبَتْ ثمارهم ، وزحف الجراد عليهم ،وتقذَّرت

أجسامهم وثيابهم ، وتواجد القُمَّل فيهم ، وبان عليهم ، وملأ عليهم فراشهم ، فأقلق مضاجعهم ، وطنَّ نقيق الضفادع فأصمَّ آذانهم ، وعكَّر أمزجتهم ، وانبثَّتْ الضفادع فى دورهم ومساكنهم وسال دم الرُّعاف من أنوفهم ، وانحلَّتْ حَيَوِيَّتهُم .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ (الأعراف الآية ١٣٤)

تخاذلوا تخاذُلَ اللئام ، الذين يخافون ولا يستحون وذلُّوا ذُلَّ العبيد ، الذين لا يستقيم حالهم ، ولا يُرجى خيرُهم ، إلا حين يُسَامُون سُوءَ العذاب .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الأعراف الآية ١٣٤)

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (الأعراف الآية ١٣٥)

وينقُضون العهد ، وينسَوْن التذلل ، وعادوا فى غيِّهم وطغيانهم يَعْمَهُون ، وفى الكيد لموسى يَفْتَنُونَ ، وفى إرهاق بنى إسرائيل يتبارَوْن ويتسابقون .

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (القصص الآية ٣٨)

وأوحينا إلى موسى ، ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ (الدخان الآية ٢٣)

وأنْ هاجرْ بهم يا موسى ليلاً ، فإن القومَ يُتابعونكم ، ويُبيِّتُون النيَّة على قتلكم وإبادتكم .

* * *

وجمع موسى أهله ، والمؤمنين بدينه ، وخرج بهم إلى الشرق .

وللشرق حنين ، وفيه الأرض المقدسة ، والبقعة المباركة . وفيه جبل الطور ، وفيه تَلَقَّى موسى الوَحْىَ بدينه ، فإلى هناك .

ولكنَّ أسْلَمَ طريق ، هو أقصر طريق ، وأقصر طريق إلى البحر ، فإلى البحر .

والبحر الأحمر عريض ، وغورُه بعيد ، فوقفوا على شاطئه حائرين ، لا يدرون ماذا يفعلون والتفتوا وراءهم ، فإذا فرعون والكفار مُحْتشدون ، وفى آثارهم يَجِدُّون .

وليس من مَلجإ إلا إليك يا الله ، فقد انزعج بنو إسرائيل من هوْل المأْزِق وتشبَّثوا بموسى ، يسألونه مَخْرجًا وخلاصًا من هذه الحَبْسة بين البحر وفرعون .

ولجأ موسى إلى ربه يسأله ، فأوحى إليه

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾ (الشعراء الآية ٦٣)

إلى ممرات كأنها شوارع ذاتُ جُدران وحوائط

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء الآية ٦٣)

إلى اثنى عشر ممرا ، ونزل كل فريق فى طريق ، فكانوا

﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ (الأعراف الآية ١٦٠)

وساروا مسرعين يعبرُون البحر ، حتى إذا وصلوا إلى نصف الطريق ، كان فرعون وجنوده قد وصلوا إلى الشاطئ ، فنزلوا وراءهم ، ليلحقوا بهم ، حتى إذا وصل فرعون إلى نصف الطريق ، كان موسى وقومه قد وصلوا إلى الشاطئ الآخر ،

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ (الشعراء الآية ٦٣)

فضرب ، فانطبق الماءُ عليهم وأغرقهم .

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس الآية ٩٠)

فقال له موسى : اخْسَأْ يا فرعون . الآن ؟ أفى هذا الوقت ؟ أفى الغَرَق ؟ وانقطاع الأمـــل ، وإزهاق الروح ، وذهاب قوَّتك ، وساعة تأكد لديك أن قوة الله أغْلَبُ من قُوتك وأن ســـلطان الله يمَحَقُ سلطانك ؟ الآن يا فرعون ، تؤمن بربك ، وتنطق بالشـــهادة ، وتدّعى الإســـلام ؟

يا فرعون لا عاصم اليوم من أمر الله ، وسيجعلك عِبْرةً ومَوعظة للطغاة الظالمين ، يا فرعون سيُنَجِّى اللهُ بَدَنَك ، بعد أن يُهلك رُوحَك . وسيُبْقى هذا الجسد طويلاً ، جسد العملاق الباقى

﴿ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ لِنَكُونَ لِمَنْ ﴾

(يونس الآية ٩٢)

* * *

نجا قومٌ ، وهلك قوم ، نجا المؤمنون ، وهلكَ الكافرون . نجا موسى وبنو إسرائيل المستَضعفون ، وهلك فرعون وأجناده وأعوانه الطاغون ، وكان البحر حدًّا فاصلا بين الحق والضلال ، وكانت سَكْتَةٌ من سَكتَات الزمن صمت فيها على أثر تلك الحوادث الجسام .

وسكن الرّوع ، واطمأنت النفوس ، وصدق وعد الله ، وأقام موسى وبنو إسرائيل . فى بَرَاحٍ من الأرض ، وسَعَةٍ من الرزق .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ (الزخرف الآية ٥٠)

إلى أجلٍ هم بالِغُوه ، ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ وأداروا وجهَهم إلى موسى ، يسألونه ، أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه ، كما لهؤلاء القوم الذين من حولنا إله . (الزخرف الآية ٥٠)

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(الأعراف الآيات ١٣٨-١٤١)

وعادوا يسألون موسى ، يا موسى ، أهذا الدِّين الذى تدعونا إليه دُستُور ؟ أنَّهُ كتاب ؟ وما كُنْهُ هذا الدِّين ؟ وما حدوده التى نعيش فى نطاقها ؟ توضِّح لنا الطريق ، وترسُم لنا المعالم ، وتجنِّبنا الخطيئة ، وتقينا الزلل .

يا موسى لقد رأينا بأعيننا مصارع القوم الذين ضَلُّوا ، والذين لم يفتَّحوا أعينهم على نور الهداية الربانية ، أفترضى لنا نحن قومك أن نسير على غير هدى ؟ فنضلَّ كما ضلُّوا .

يا موسى اسألْ ربك ، يُبيِّنْ لنا حدود هذا الدِّين فى كتابٍ نقرؤه ونتبعهُ .

* * *

وسأل موسى ربه ، أن يمنح قومه كتابًا ، فيه دين .

فوعده ربه ، أن سيُؤتيه الكتاب ، بعد أن يُعِدَّ نفسَه لتَلَقِّ هذه الأمانة ، وأن يصوم ويتطهَّر ثلاثين يوما ، فى شهر ذى القعدة ، فصام وتطهَّر ، حتى حان الميعاد والميقات

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

(الأعراف الآية ١٥٥)

ليرافقوه فى هذا الميعاد ، وفى تَلَقِّ هذا الوحى ، ولكن موسى لم ينتظرْ إخوانه ، حتى يخرجوا معه إلى جبل الطور ، فى البُقْعة المباركة ، وتعجَّل فسبقهم ليلقىَ ربه قبلهم ، فسأله ربه :

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾

(طه الآيتان ٨٣/٨٤)

فأُمِر بالانتظار والتريث عشرة أيام أخرى ، حتى يأتى السبعون المختارون وليشاركوه فى تحُمل أعباءِ رسالته .

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٢)

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٣)

كلامًا سمعه من كل جهة ، بجسمه وروحه ، وعقله وحواسّه ، فهو اتصالٌ كُلِّيٌّ ، ثم تجسَّم فى نَفْس النَّبى ، فنطقَ به إملاءً من هذا الاتصال ،

مباشرًا ، من غير وساطة جبريل ، بريد الله إلى الأنبياءِ .

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء الآية ١٦٤)

وليس عجيبا أن يسأل ربَّه ، أن يَظْهَرَ له فيراه ، فإبراهيم من قبلُ ، سأل ربه :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة الآية ٢٦٠)

وموسى نفسهُ ، سأله قومه :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (النساء الآية ١٥٣)

* * *

تلك طبيعة الإنسان ، حتى فى نبينا محمد ، ﷺ ، طبيعةُ حُبِّ الاستطلاع ، واللَّهفة على المجهول ، والحَيْرةِ فيما هو مخبوءٌ وراء حُجُب الغيب

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (القيامة الآية ١٦)

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف الآية ١٤٣)

* * *

وقال الله لموسى ، لن تراني ، فإنك لم تَفُزْ بَعْدُ ، ولم تتهيأ لرؤيتى ، وطاقتك محدودة ؛ وسأريك يا موسى بعضَ آثار قدرتى ، ولعلك تُطيق .

﴿ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ (الأعراف الآية ١٤٣)

بجلاله وكماله ، ورَهْبُوته وجَبَرُوته ، انْدَكَّ الجبل ، وغاص فى الأرض ، فغُشِىَ على موسى ، من هوْل ما رأى . وأخذته رهْبةُ الموقف ، وغاب فى ملكوت الله ، وخَرَّ على وجهه ساجدًا لله مُقِرًّا مُذْعِنًا لرَحَمُوتِ الله ... ..

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٣)

من قَلَقى وحَيْرَتى ، ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٣)

وقال الله ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى ﴾ (الأعراف الآية ١٤٤)

﴿ وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٤)

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً ﴾

(الأعراف الآية ١٤٥)

وتفاصيلَ الأحكام ، وتعاليم الدِّين ، وكانت هى التوراة ، الكتاب السماوىّ الذى أنزله الله على موسى ، وكان هو العهد القديم ، فى دين النصارى

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة الآية ٥٣)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾

(المائدة الآية ٤٤)

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾

(الأعراف الآية ١٤٢)

وكان لابد لموسى ، يوم خرجَ مع السبعين المختارين من قومه إلى جانب الطُّور الأيمن ، أن يُوَصِّى أخاه هارون بقومه ، يقوم مقامَه فيهم ، يوفق بينهم ، ويهدى ضالهم ، ويُصلح ما فسد من أمورهم ، وكان الموعد الذى حدَّده لغيبته عنهم ، ثلاثين يوما ، فلما أمره الله أن يُتِمَّهَا أربعين ليلة بقى فى الجبل ، وتأخر عن قومه ، وأخلف موعده ، فَلِقَ بنو إسرائيل ، وفى

طَبْعِهم القلق ، وزاغَتْ نفوسهم ، وتزعزع بموسى إيمانهم وشاع فيهم الشائعات ، أن موسى ، أخلفَ الوعد ، وطاب له العيش بالشام ، وأنه سوف لا يعود إليهم .

وظهر السامرى ، ذلك الرجل المثَّال ، صانع التماثيل ، فأذكى فيهم رُوح القَلَق ، وعاد بهم سيرتَهم الأولى ، إلى عِبادة التماثيل والأصنام ، وجَمَع منهم ذهَبهم ، وصَهَره وصبَّه تمثالاً ، على هيئة عجلٍ من بقر ، وركَّب فيه بحيلته ، وخفة يده ، وبما أطْلَقَه من بُخُور وحِيَل فجعلهُ يصوِّت كصوت العجول ، فأغراهم منظرُه ، واستلب عقولَهم خوارهُ ، فاتخذوه إلها

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ (طه الآية ٨٨)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

(طه الآيتان ٩٠/٩١)

وعاد موسى إليهم ، ففزع لنكْستهم فى دينهمْ وارتدادهم فى الكفر على أعقابهم ، والتفت إلى هارون

﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾

(الأعراف الآية ١٥٠)

ويقول

﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾

(طه الآيتان ٩٢/٩٣)

وقال هارون لموسى : يا أخى ، ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾

وأبى ! بالله عليك أن تهْدأ ، ولا تؤذنى

﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(طه الآية ٩٤)

إذا أنا قاوَمْتُهم بالقوة وحَملْتهم على الدين بالإكراه .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ (طه الآية ٨٥)

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ (طه الآية ٨٨)

قال ياقوم : بئس ما خلفتمونى من بعدى (طه الآية ٨٦)

﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾

(طه الآية ٨٦)

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(البقرة الآية ٥٤)

واكسروا شرتها وحدتها ، وقوموا اعوجاجها . قالوا : يا موسى

﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (طه الآية ٨٧)

* * *

والتفت موسى إلى السامرىّ ، يسأله : ماخبرُك يا هذا ؟ فكان صريحًا جريئًا متبجّحًا حين قال :

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

(طه الآية ٩٦)

وتعلّمتُ ما لم يتعلموه .

ولقد عرفت المكان الذى نزل عليك الوحى فيه ، وعرفت أنه مبارك وأن ترابه يشتمل على قوة كامنة فيه ، فقبضتُ حِفنةً من هذا التراب ، وألقيتُها على الذهب المصهور ، وصبّبت منه تمثالاً لعجل من ذهب برّاقٍ وهّاج ، ونفختُ فيه ، فإذا هو عجلٌ له خُوار .

وما دفعنى إليها دافع ، إلا نفسى التى حسّنتْ لى هذه الفكرة ، فنفّذْتُها ، وعرضتُها على القوم ، فوقعوا فى شَرَكِها ، وفسقوا عن دينك وعبدوا العجل .

فدعا عليه موسى ، أن يعيش بقية عمره ، بغيضًا مكروهًا من الناس ، لا يقربونه ولا يكلمونه ،

وأوْعده يوم القيامة ، يحاسبُه ربه ، ويعاقبه ، جزاءَ ما أغْوَى الناس ، وضلَّلهم عن دينهم ، وسيحمِّله الله أوْزارًا قدر أوزارهم جميعًا .

قال موسى للسامرى ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

(طه الآية ٩٧

ياقوم

﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

(طه الآية ٩٨)

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(الأعراف الآية ١٦٠)

(وقطّعناهم فى الأرض أمَمًا ، منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(المائدة الآية ١٢)

وهم الأسْباط يقومون فيهم على هدايتهم ، وإصلاح حالهم .

وشاءَت إرادةُ الله أن يُتمَّ نعمتَه عليهم ، ويبْسط الأرض الفسيحة ، وأوحى الله إلى موسى ، أن اضربْ بعصاك الحجر ، أىَّ حجرٍ ، تتفجرْ منه عيون الماءِ ، ليرتوىَ قومُك العطاش فى هذه الصحراء الجدباءِ .

﴿ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(البقرة الآية ٦٠)

وأغدَقَ الله عليهم نعَمهُ وفضله ، فساق إليهم الغمام ، يظَلِّلهم ، ويقيهم ، وَهَجَ الشمس ، ولفح القيظ وأنزل عليهم فاكهة الاترنج ، وساق إليهم مع الرياح طيور السُمَانَى ، طعامٌ من الفاكهة ومن الطير ، خيرُ طعام ، وأنزلنا عليكم المنَّ والسَّلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم ،

وبعث عليهم عمودا من نور يضيء لهم ظلام الليل ، ولعله كان نهرًا من أنهار المجرَّة ، ومجموعة من مجموعات الكواكب ، التى تظهر فى السماء وأكرمهم ، فكانت ثيابهمُ لاتتسخ ولا تبلَى .

ولكنهم بَطِرُوا بهذه النعم ، وزهدوا فى هذا النعيم ، وسئِموا الإعزاز بعد الذلة ، فإنهم ما تعوَّدوا التكريم ولا التعزيز ، وإنما عاشوا تحت الضغط وربُّوا فى الهوان .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ ﴾

إنا

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(البقرة الآية ٦١)

وعجب موسى من ذوق هؤلاء الناس ، وانحراف مزاجهم وتلذيهم حتى فى الطعام

﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ (البقرة الآية ٦١)

وأطعم ، روحوا إلى مصر ، وأى بلد زراعية مصر فأفلحوا الأرض وازرعوها واستنبتوها ، وكلوا منها : بَقْلاً وَقِثَّاءَ وفولاً وعدسًا وبصلاً ، وأشْبعُوا أجسامكم ، واملئوا بطونكم ، واجترُّوا كما تجترُّ بهائمكم ، وستُغطَّى أبخرةُ هذه الأطعمة الغليظة على أفهامكم ، وستَفْتر ، همتُكم ، وتنحطُّ مَعْنويَاتكُمْ وسيَخْمُلُ ذكرُكم ، وتعودون إلى الذلة والهوان ، وستعيشون مساكين ، فى غضب الله ، الذى منحكم السُّمُوَّ والرفعة ، فلا تسمون ولا ترتفعون .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(البقرة الآية ٦١)

ولم يَرْضَ موسى أن يترك فرصة ، يدلهم فيها على الخير ، والتسامى فى الحياة . إلا عرضها عليهم ، ولكنهم عبيدٌ أذلَّة ، يَدَعون الفُرَصَ تُفْلِت من بين أيديهم وهم لا يشعرون .

عرض عليهم ، أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وقال لهم : تعالَوْا إلى بيت المقدس مدينة الأنبياء والمرسلين ، ومنبع الرسالات ، وهى الأرض الطيبة المباركة . وفيها الأمن والدَّعة والسلام والاستقرار

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾

(البقرة الآية ٥٨)

وادخلوها شاكرين نعمة ربكم ، حامدين ساجدين ، وحُطُّوا فيها رحالكم ، واهْدَأوا بعد حياة الارتحال والتنقل فى الفيافى وَالقفاز ، وانصرفوا إلى العبادة والتطهر من أرجاس الحياة القلقة التى لا نظام فيها ولا قانون يربطها وعيشوا عيشة التمدن والتحضر ،

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(البقرة الآية ٥٨)

ولكن النفوس الواطية الضعيفة المنحلة ، التى اندمغت بدامغ العبودية ، واندبغت جلودها بدابغ الاستذلال ، لا تتسامى ولا تنهض ، ولا تتذوّق الإعزاز ، ولا تستطعم الإسعاد ، وتتشبث دائمًا بالحمإ والطين وتستمرئ التدنّى فى الحياة ، كذيل الكلب ، تراه دائمًا ملويًا فإذا ربطته على عصا ليستقيم استقام مادام مشدودًا مضغوطًا ، فإذا حللناه ، عاد ملويًا على عادته وخِلقته .

وكذلك بنو إسرائيل ، يعرض عليهم موسى ، الذى أعتق رقابهم من فرعون ، ووهب لهم حياة الكرامة بعد أن قتلت نفوسهم ، وانحلت همهم ، وأقام معهم زمانًا فى الصحراء ، ليعوّدهم حياة الخشونة والنخوة ، ويعودهم على حياة الفروسية والهمّة ، وليبدلهم بالذل عزا ، وبالفقر غنى وبالشقاوة راحة ، ثم يدعوهم إلى حياة الحضارة وتكوين الدولة ، والانخراط فى سلك الإنسانية الرفيعة ، إذا هم يتخاذلون ويتقاعسون ، أمام رجلين اثنين ، مهما كانا قويين .

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

(المائدة الآية ٢١)

قالوا ياموسى : إن فى بيت المقدس

﴿ قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

(المائدة الآية ٢٢)

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾

(المائدة الآية ٢٣)

ومن خاف الله واتقاه ، خافه الناس ، لاعتماده على الله ، واعتصامه بقوة الله ، وقد أنعم الله عليهما بقوة التدين ،

﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(المائدة الآية ٢٣)

وهل ينفع الطَّرْق فى حديد بارد ؟ وهل تعود الحياة إلى قلب ميت ؟ وهل يتحول خبثُ الحديد ، فيصير ذهبًا ومن كان فى جميزة أصله ، لا ينبت التفاح فى فرعه . وأين الأدب فى الحديث إذا حدثتَ سافلا ، وأين عرفان الجميل إذا ذكرت جاحدًا ناكرًا ؟ .

ففى قحة وبَجَاحة ، يردون على موسى يقولون

﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(المائدة الآية ٢٤)

وماذا يصنع موسى فى هؤلاء، إلا أن يدعهم ويدعو عليهم ، ويتجه إلى ربه ضارعًا مستنجدًا

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(المائدة الآية ٢٥)

وقال الله مستجيبا دعوة موسى

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(المائدة الآية ٢٦)

وفى القرآن الكريم ، كثير من الآيات ، تذكّر بنى إسرائيل بنعم الله

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(البقرة الآية ٤٧)

يابنى إسرائيل اذكروا ، واذكروا ، ولكن !

لقد أسمعت إذْ ناديتَ حيا ولكنْ لا حياة لمن تنادى

فكثرت مساوئهم ومخازيهم ، حتى فى أتفهِ الأمور ، وأهونها على أنفسهم ، فلقد كانوا ،

أيام أن كان فيهم بقيه من إيمان ، يُخصِّصون يوم الجمعة لعبادة الله ، يتفرغون فيه من العمل ، ويخلصون من مشاغل الدنيا للعبادة ، وأقرّهم موسى عليه ، ثم نكصوا عن يوم الجمعة ، واختاروا يوم السبت ، يسبتون فيه ويتنسكون . وأقرهم موسى عليه ، فكانوا لا يعملون فيه ، ولا يمدون أيديهم إلى شيء ، حتى لو برز لهم السمك من الماء ، وأطل عليهم بأعناقه ، ولعب تحت أيديهم وأرجلهم . فكانت

﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(الأعراف الآية ١٦٣)

وكذلك الحمام فى الحرم المدنى ، يحط بين الناس ، وهو آمن مطمئن فهو قد ربّى على ألا يمسه أحد بسوء .

وبنو إسرائيل ، هم كما عهدناهم ، دينهم ليس عزيزًا عليهم ، لا يَزَعُ نفوسهم ، ولا يكبح جماحهم ، ولا يحول بينهم وبين أطماعهم ، وليس غريبًا على اليهودى ، أن يحنث فى يمينه ، وأن يخلف فى وعده ، وأن يفرط فى شرفه ، إذا برق فى عينه بريق المال ، وزهت فى عينه المادة .

وتلك رذيلة ورثوها عن آبائهم ، أصحاب يوم السبت الذين خالفوا فيه الدين وتصيّدوا السمك ، وأحلوا ما حرّم الله .

وليس صيد السمك ، جريمة نكراءَ ، تُغضب السماءَ ولكنها تكشف عن رجرجتهم فى دينهم ، وتخلخل عقيدتهم .

فقال الله لهم

﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

(البقرة الآية ٦٥)

قردة وأشباه قردة ، وبعض بنى الإنسان ، تتغير نفسه ، فتتغير سحنته وخلقته ، ويَشْرُسُ طبعه ويَسْوَدُّ قلبه ، ويأكل الغِلُّ صدره ، فيبدو أشبه بصورة القردة ، وفى حدائق الحيوان نرى وجوه بعض القردة ، طِبْق صور بعض الناس .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة الآية ٦٦)

وفى القرآن الكريم آيات ، تقص علينا جهلهم وجحودهم ، وتنطعهم نطاعةَ تُحنِقُ وتغيظ من يسمع أخبارهم .

فقد تنطّعوا فى الأسئلة ، وأطالوا حبل المناقشة والمجادلة ، وضيّقوا على أنفسهم حبل

المشنقة ، حتى ضُرِب بهم المثل فى كل تعنُّتٍ وتزمُّت ونطاعة ، فيقال : لا تكنْ مثل بنى إسرائيل إذْ ضيَّقوا على أنفسهم يوم البقرة .

فلقد كان فيهم شيخ غنى ، وله ولد وحيد ، ورث كل ثروة أبيه ، فغار منه أبناءُ عمه ، فقتلوه . وطرحوا جثته على باب المدينة ، ثم دخلوا على الناس صارخين باكين ، يطالبون بدمه ، ويدَّعون أنهم مصابون فيه ليكونوا أصحاب دمِه وثروته ، وبحثوا عن القاتل ، فلم يجدوه ، وراحوا إلى موسى يستفتونه فيما يصنعون .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة الآية ٧٢)

فأمرهم موسى : أن يذبحوا بقرة ، وأن يأخذوا لسانها ، ويضربوا القتيل به . فيحيا ، ويخبر عن قاتليه .

وقالوا : ياموسى

﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(البقرة الآية ٦٧)

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾

(البقرة الآية ٦٨)

وأى البقر نذبح ؟ فالبقر كثير .

قال موسى : سألت ربى . فقال : اذبحوا بقرة وسَطًا فى عمرها ، لاهى عَجوز عجفاءُ ، ولا هى صغيرة خضراءُ ، فافعلوا ماتؤمرون .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

(البقرة الآية ٦٩)

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾

(البقرة الآية ٦٩)

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾

(البقرة الآية ٧٠)

وما أوصافها ، وما اسم صاحبها .

﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

(البقرة الآية ٧٠)

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾

(البقرة الآية ٧١)

* * *

إنها بقرة مرتاحة ، لم ينهكها العمل ، ولم يُنحلها التعب ، ولا أذلها الشقاءُ ، ولا أضناها النصب ، فى حرث الأرض ، وإدارة الساقية ، وهى بقرة مسلَّمة من العيوب ، فلا أذنها مقطوعة ، ولا ذيلها مبتور ، ولا جلدها مسلَّخ ، ولا عيب فيها .

وأنَّى لنا هذه البقرة ؟ لقد ضيقنا على أنفسنا وشدَّدنا ، فضيق الله وشدد علينا . وليس إلا بقرة اليتيم ، وما يقبل أوصياؤه أن يبيعوها . وإنْ هم قبلوا فما يجزيهم إلا ملءُ جلدها ذهبًا .

وحكمة الله : أن يسلط عليهم أنفسهم ، حتى يكون ذلك فى مصلحة اليتيم وليخلق من الشر خيرًا ، ومن التعسير تيسيرًا . ومصائب قوم ، عند قوم فوائد . فذبحوها ، وما كادوا يفعلون ، وما لبثوا أن ضربوا القتيل بلسانها ، حتى دبت فيه الروح ، وانبعثت فيه الحياة ، ونطق بأسماء قاتليه ، وهم أبناء عمه .

* * *

ياويحكم يابنى إسرائيل ، هل رأيتم بأعينكم قدرة الله ، التى أحيت الموتى ، وهل اقتنعتم بأن منْ ضيَّق ، ضُيِّق عليه ، ومن شدَّد شُدِّد عليه . وهل لانت قلوبكم . وصفت نفوسكم . ومِلتم إلى الرجعة إلى الله .

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة الآية ٧٣)

يوم البعث

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة الآية ٧٣)

ياويلكم يابنى إسرائيل ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة الآية ٧٤)

* * *